اجتهادات
تنقيبُ عن القلوب

التفتيش فى النوايا، أو التنقيب عن القلوب، شائع فى ثقافتنا, وضحاياه كُثُر. وأكثرُهم مثقفون تثيرُ أعمالُهم جدالا. وأحد أكثر من فَتش فى نواياهم الشاعرُ الكبير نزار قبانى، الذى تُصادفُ المئويةُ الأولى لولادته مرور ربع قرنٍ على رحيله. كُتب وقيل عن شعره أكثر من أى شاعر آخر. وفاق نقدُ قصائده مختلطًا بشخصه ما كُتب أو قيل عن غيره.

ولكن أكثر هذا النقد انصب، ومازال، على مواضيع إبداعه وليس على هذا الإبداع من داخله, ربما لأنه تميز بجرأة غير مألوفة على المستوى العربى، سواء فى قضايا السياسة والمجتمع، أو فى مسائل المرأة والحب. تجرأ على أنماط تفكيرٍ سائدة، وفتح قضايا مسكوتًا عنها أو ممنوعًا الاقتراب منها. طغى الاهتمام بمواضيع قصائده على تجربته الشعرية، أو كونه الشعرى على حد تعبير محيى الدين صبحى فى كتابه الثرى «الكون الشعرى عند نزار قبانى.

اتسمت كتاباتُ أكثر ناقدى قبانى بالخفة. ونصّب بعضُهم أنفسهم مُحقِّقين بحثوا عن شذرةٍ أو أخرى فى هذه القصيدة أو تلك، فبدا الواحدُ منهم كمن يصيحُ «وجدتها». واختُزل إبداعُه فى المرأة والغزل والحب، وهو الذى رجت قصائدُه السياسيةُ الأرض رجًا منذ قصيدة «جميلة بوحيرد» فى الخمسينيات، وحتى قصيدة «المهرولون» فى التسعينات. أما قصيدةُ «ثلاثة أطفال الحجارة» فكانت التعبير الجمالى الأروع عمن قال فى مطلعها إنهم (بهروا الدنيا/وما فى يدهم إلا الحجارة/وأضاءوا القناديل/وجاءوا كالبشارة..).

لم أقابله إلا قرب رحيله. كنتُ مسئولا عن مكتب صحيفة «الحياة» اللندنية بالقاهرة عندما نشر فيها رائعته «المهرولون». وأردتُ أن أجعلها مدخلا لحوارٍ على مستوى عال، فطلبتُ إلى الراحل الكبير نجيب محفوظ تعليقًا كان عنوانُه (قصيدة قوية وموقف ضعيف). وكتبتُ مع هذا التعليق ما معناه أن هذا الموقف يعبرُ عن مشاعر ملايين العرب. تلقيت اتصالا منه فى مكتب الصحيفة، والتقيتُه بعيدها عندما زُرت لندن، ولمستُ حزنه لكثرة ما أصابه فى كتابات نقدية. فليت من يستسهلون التنقيب عن القلوب يعرفون فداحة فعلهم، ويذكرون قول الرسول عليه الصلاة والسلام (إنى لم أومر أن أُنقِّبَ عن قلوب الناس، ولا أشقَ بطونَهم).